العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

دكتور محمد فتح الله الزيادي
كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس - ليبيا

تمهيد:

لسنا بحاجة إلى التأكيد على اهتمام الإسلام بالبيئة فهو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله دستوراً نهائياً للبشرية عامة، فنهائية هذه الرسالة وعموميتها صفتان ضمنتا للإسلام شموليته لكل مناحي الحياة مادية ومعنوية، وشموليته لكل ما يؤدي به إلى السعادة الأخروية، ولا شك أن البيئة بكل جوانبها تقع ضمن هذه الشمولية إن لم نقل إنها المرتكز فيها، وذلك لأنها مسرح تحقيق الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فما لم تتحقق شروط السلامة الكاملة للبيئة لا تتحقق الخلافة التي دُعي الإنسان لتحقيقها.

إن المتمعن في آيات القرآن الكريم يجد أن مفهوم البيئة يتردد صداه في

199 آية في سور مختلفة تتناول مكونات البيئة المختلفة من أرض وما تضمُّه من مكونات حية وغير حية وما يحيط بها من غلاف غازي وغيره، وبحار وما تحتويه من عوالم يصعب إدراك عظمتها، وكلها تدل على قدرة الله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1] وتدل أيضاً على اهتمام هذه الرسالة بتبيان كل ما له صلة بتحقيق السعادة للإنسان وتسهيل مهمته التي أوكلها الله إليه وهي إعمار الأرض وتسخير كل ما فيها لخدمته.

إن اهتمام الإسلام بالبيئة من حيث مكوناتها ودقة صنعها وتنوعها وبيان سحرها وروعتها يرتقي إلى أعلى الدرجات حتى يصل إلى أن يستخدمها القرآن كإحدى الوسائل الموصلة إلى متانة البناء العقدي للفرد المسلم وذلك حين طالب الإنسان بالنظر فيها والتفكر في صنعها والوصول من خلال ذلك إلى إدراك عظمة الخالق سبحانه وتعالى ومن ثم الإيمان به والتسليم بقدرته وتفرده في صنع هذا الكون.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[3].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ * وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[4]،

---

(1) سورة النمل، الآية: 88.

(2) سورة يونس، الآية: 101.

(3) سورة ق، الآيات: 6 ـ 11.

(4) سورة الحجر، الآيات: 19 ـ 22.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[5].

وإذا كانت مسألة حقوق الإنسان من المسائل التي تلقى اهتماماً عالمياً معاصراً ويستخدمها الغرب سيفاً مسلطاً على العالم الإسلامي متهماً إياه بأنه يهدر حقوق الإنسان السياسية، فإن القرآن الذي هو الموسوعة الشاملة لحقوق الإنسان يعتبر البيئة وما فيها من موارد أحد الحقوق الرئيسية للإنسان التي يجب أن يتمتع بها بكل حرية ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[6].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[7].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[8].

مفهوم البيئة:

عرفت البيئة بتعريفات متعددة تأخذ مناحي متنوعة غير أن ما يربطها جميعاً هو أنها تدور حول محور واحد هو الكائن الحي وما يحيط به، ولذلك عرفها البعض بأنها المجال الذي تحدث فيه الإثارة والتفاعل لكل وحدة حية، أو هي كل ما يحيط بالإنسان من موارد طبيعية ومجتمعات بشرية ونظم اجتماعية[9].

وقد عرف مؤتمر البيئة الذي عقد تحت رعاية الأمم المتحدة في استكهولم

---

(5) سورة عبس، الآيات: 24 ـ 32.
(6) سورة الملك، الآية: 15.
(7) سورة النحل، الآية: 10.
(8) سورة النحل، الآية: 14.
(9) د. مصطفى العلواني/ التلوث جريمة الجشعين/ مجلة قطر الخير/ ع25/ يوليو 1999.

بالسويد سنة 1972 البيئة بأنها (رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته)[10]، وقد حاول البعض من الباحثين أن يحدد مفهوماً إسلامياً للبيئة غير أنه في تصوري لا يخرج عن التعريفات الأخرى التي ذكرت لمفهوم البيئة.

الأصول الإسلامية للاهتمام بالبيئة:

يمكن حوصلة موضوع البيئة في الإسلام في ثلاثة أصول رئيسية هي: الإنسان، الماء، الهواء.

فالإنسان الذي هو محور الرسالة الإسلامية قد وضح القرآن أموراً كثيرة تتعلق به يمكن أن تصاغ كلها في أمرين رئيسيين:

1 ـ أنه مستخلف في الأرض.

2 ـ وأن الكون كله مسخر له.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[11]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[12]، ويقتضي مفهوم الاستخلاف والتسخير أموراً أهمها:

1 ـ أن الإنسان وصيٌ على هذه البيئة التي استخلف فيها وليس مالكاً لها، لأن إقامته فيها مؤقتة ومن ثم وجب عليه المحافظة عليها فهي أمانة عنده والمحافظة على الأمانة ركيزة من ركائز الإسلام.

2 ـ أن ملكية الإنسان لهذه البيئة ليست مطلقة وإنما هي محدودة بمدى انتفاعه بها بما لا يؤدي إلى إتلافها أو الإضرار بالآخرين، والقاعدة الفقهية

---

(10) محمد الفقي/ البيئة/ مكتبة ابن سينا/ مصر/ 1993/ ص18.

(11) سورة الأنعام، الآية: 165.

(12) سورة إبراهيم، الآيات: 32 ـ 34.

الشهيرة (لا ضرر ولا ضرار) فإذا كان الله قد سخر كل مخلوقاته لخدمة الإنسان فإن ذلك كان بسبب تمكينه من الخلافة المؤدية إلى الإعمار وهذه لا تتحقق إلا بالمحافظة على كل مكونات البيئة، وأن البيئة بكل مكوناتها ملك لكل الأجيال وكل جيل مسؤول عن تسليمها للجيل الذي يليه صافية نقية لكي يتمكن كل جيل من أداء دوره في خلافة الأرض وإعمارها، وأن يستفيد من تسخير الله لهذه الموارد له، ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[13] وبهذا المفهوم يحد الإسلام من أنانية البشر في الانتفاع المطلق ليؤكد فقط على الانتفاع المحقق لخلافة الإنسان لله في الأرض.

3 ـ إذا كانت البيئة أمانة لدى الإنسان فإنها في ذات الوقت أداة امتحان واختبار له، يتأهل من خلاله لنيل مرضاة الله إن حافظ عليها وينال غضب الله حين يعمل فيها الفساد، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية مخبراً ومحذراً ومتوعداً فقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[14]. ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[15] ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[16].

الأصل الثاني: الماء:

وهو معجزة إلٰهية عجز البشر حتى هذه اللحظة عن الوصول إلى صنعها على الرغم من أنها أساس الحياة في كل شيء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ

---

(13) سورة البقرة، الآية: 36.

(14) سورة البقرة، الآية: 205.

(15) سورة القصص، الآية: 77.

(16) سورة المائدة، الآية: 33.

حَيٍّ﴾[17] ولأهميته في الحياة ودوره في كافة مكونات البيئة فقد استخدمه القرآن أداة في المحاورة العقدية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[18].

كما استخدمه القرآن في تحدي البشر وردعهم عن تجاوز قدرة الله وعدم الاعتراف بنعمته فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[19].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[20]. ولأن الماء أساس الحياة فقد منع الإسلام احتكاره وجعله مشاعاً بين الناس ففي السنة (**الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار**) كما نهى الإسلام عن تلويثه في أحاديث كثيرة.

الأصل الثالث: الهواء:

لا نريد التعرض للتركيبة العلمية للهواء وما يتضح فيها من دقة في الخلق تدل على عظمة الخالق وعظيم صنعه، ولا نريد أن نتحدث عن الغازات والعناصر والمركبات الكيمائية وكيفية توازنها وتناغمها حتى تنتج هواء نقياً لا تستقيم الحياة ولا توجد بدونه في كل مكونات البيئة، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[21] ولكن الذي تجب الإشارة إليه هو أن كلاً من الماء والهواء عرضة للتلوث بفعل الاستهلاك البشري الخاطئ، وهو ما يهدد الحياة على وجه الأرض، ويشهد العالم المعاصر مشكلات كبرى ناتجة عن تلوث الماء والهواء بسبب عدم قدرة الإنسان على ضبط تعامله مع هذين العنصرين وهو ما أشار إليه

---

(17) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(18) سورة البقرة، الآية: 22.

(19) سورة الواقعة، الآيات: 68 ـ 70.

(20) سورة الملك، الآية: 30.

(21) سورة النمل، الآية: 80.

القرآن الكريم حين قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[22] ولذلك وحماية من الإسلام للبيئة فقد أمر بالاعتدال في الاستفادة منها ونهى عن الإسراف والإفساد لمكوناتها ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[23] ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[24].

وهكذا نجد أن البيئة بأصولها ومكوناتها المختلفة حاضرة في القرآن الكريم للدلالة على قدرة الخالق وبديع صنعه ولإثبات ضعف المخلوق وعدم قدرته حتى على المحافظة عليها، وحاضرة في صون القرآن لها بالأوامر والنواهي التي تحفظها من أنانية الإنسان واستغلاله السيّئ لها ومن هنا يتبين أن الإسلام قد اهتم بالبيئة من خلال منظومة فكرية متكاملة تجمع مختلف الجوانب العقدية والاقتصادية والاجتماعية.

البيئة ودور أهل الديانات في المحافظة عليها:

إذا كان ما قدمته سابقاً يؤكد على اهتمام الإسلام بالبيئة ونظرته إلى سلامتها والمحافظة عليها نظرته للحياة ذاتها، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو هل كل أصحاب الديانات الأخرى كانت لديهم هذه النظرة؟ وهل كان لهم دور في المحافظة على البيئة انطلاقاً من عقائدهم وقيمهم كما هو الحال في الإسلام؟ العالم المعاصر كله يمثل إجابة لهذا السؤال فكل ملوثات البيئة في عالمنا مصدرها العالم الغربي وهو الذي يمثل افتراضاً العالم المسيحي، فهل انفصل المسيحيون عن ثقافتهم الدينية فلم يعد لديهم وازع ديني يحكم سلوكياتهم أم أن المسيحية ذاتها لم تتضمن ما يحد من تطلعات الإنسان النفعية والتي وصل مداها إلى دمار البيئة البشرية وأصبحت الكرة الأرضية كلها مهددة بأخطار التلوث الناتج عن الآلة الغربية التي أطلق العلم الحديث مداها حتى

(22) سورة الروم، الآية: 41.

(23) سورة البقرة، الآية: 60.

(24) سورة القصص، الآية: 77.

طالت قضايا لم نكن نتصور أنها ستخرج من عالم الخيال إلى عالم الواقع.

الإجابة الأولى تقول: (لقد تتبع العلماء الغربيون جذور أزمتنا البيئية وأرجعوها إلى الموقف اليهودي المسيحي من الطبيعة فإن هذا الموقف وما يصاحبه من ميراث تقليدي وثقافي هو المسؤول عن الأخطار الموضوعية التي تهدد المستقبل الإنساني ألا وهي:

1 ـ انطلاق التكنولوجيا الموجهة إنتاجياً والذي أدى بدوره إلى نضوب موارد الأرض الطبيعية.

2 ـ الضغط الكلي والفردي على الأرض والبيئة.

3 ـ الزيادة المستمرة في المخلّفات.

4 ـ المخزون من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية الذي يكفي لتدمير الأرض بضع مرات.

5 ـ النمو الهائل للسكان وتراكمهم في مناطق حضرية واسعة وانعزال الإنسان عن بيئته وعن الطبيعة.

إن كل اتجاه من تلك الاتجاهات يمثل خطراً رئيسياً يهدد رخاءنا الجماعي بل وبقاءنا. ويحاول علماء أمثال فرايزر دارلنج وثيودور روزال وجوفري نيكرز ولين وايت الصغير أن يبرهنوا أن هذه المخاطر ما هي إلا نتاج النظام الأخلاقي الغربي، وجذور أزمتنا الأيكولوجية بديهية فهي تكمن في معتقداتنا وكياناتنا القيمة التي تشكل بدورها علاقتنا بالطبيعة وعلاقة كل منا بالآخر وكذلك تشكل الأنماط الحياتية التي نعيشها)[25].

وإذا كانت الإجابة الأولى قد انطلقت من إطار الواقع رابطة بينه وبين القيم الدينية للإنسان الغربي، فإن الإجابة الثانية ستميل إلى تحليل أعمق يحاول فيه العلامة (محمد باقر الصدر) أن يقارن بين الإنسان الشرقي والأوروبي من حيث

---

(25) ضياء الدين سردار/ نحو نظرية إسلامية عن البيئة/ ترجمة سمية البطراوي/ مج/ المسلم المعاصر/ السنة 15/ العدد 59/ 1991/ ص77 ـ 78.

تغلغل القيم الدينية في كل منهما وأثر ذلك في تعاملهما مع المكونات الحياتية المختلفة فيقول: (يختلف الإنسان الأوروبي عن الإنسان الشرقي اختلافاً كبيراً فالإنسان الأوروبي بطبيعته ينظر إلى الأرض دائماً لا إلى السماء، وحتى المسيحية ـ بوصفها الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين ـ لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الإنسان الأوروبي بل بدلاً عن أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إلٰه المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي) (ولقد استطاعت النظرة إلى الأرض لدى الإنسان الأوروبي أن تفجر طاقاته في البناء وأدت أيضاً إلى ألوان التنافس المحموم على الأرض وخيراتها ونشأت أشكال من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، لأن تعلق هذا الكائن بالأرض وثرواتها جعله يضحي بأخيه ويحوله من شريك إلى أداة. وأما الشرقيون فأخلاقيتهم تختلف عن أخلاقيات الإنسان الأوروبي نتيجة لتاريخهم الديني، فإن الإنسان الشرقي الذي ربته رسالات السماء وعاشت في بلاده ومر بتربية دينية مديدة على يد الإسلام ينظر بطبيعته إلى السماء قبل أن ينظر إلى الأرض ويأخذ بعالم الغيب قبل أن يأخذ بالمادة والمحسوس وهذه الغيبية العميقة في مزاج الإنسان الشرقي المسلم حدت من قوة إغراء المادة وقابليتها لإثارته)[26].

لعلنا من خلال الإجابتين السابقتين نكون أقدر على التأكيد بأن الإسلام من خلال عقائده وقيمه ومثله وثقافته أكثر احتراماً للبيئة وأكثر محافظة عليها، وهذا يدعونا إلى الفخر لأن ديننا إنساني يحترم الإنسان ويقدسه ويسهل له كل ما يؤدي إلى استغلال الموارد البيئية دون تفريط أو إهداء لهذه الموارد، وهذا يرتب علينا مهمة كبيرة في التبشير بهذا الدين ودوره في حل مشكلات البشرية المعاصرة.

ولا يعني هذا بالضرورة أن تخلو الأديان الأخرى من قيم تحترم البيئة وتدعو إلى المحافظة عليها وإنما قد تكون القضية مرتبطة بانفصال الإنسان الغربي ـ المتهم الأول بتدمير البيئة ـ عن ثقافته الدينية والتزامه بعقائد وأخلاق

(26) السيد محمد باقر الصدر/ منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ دار التعارف.

المسيحية واليهودية، وهذا ما أكده المؤتمر الكبير الذي نظمه الصندوق العالمي لحماية البيئة في مدينة (باكتابور) القديمة في نيبال والذي حضره ممثلون لإحدى عشرة ديانة كبيرة في العالم، وقد أكد الأمين العام لمنظمة تحالف الدين والحفاظ على البيئة إن جميع الديانات بها تعاليم بيئية أبرزها المؤتمر، وقد تعهد مملثو الديانات المشاركة باتخاذ إجراءات مناسبة من أجل حماية الكرة الأرضية[27].

الاجتهاد الفقهي في مجال البيئة:

لا أحد يشك في أن فقهاءنا قد أولوا البيئة اهتماماً كبيراً يترجم مستهدفات القرآن الكريم بنصوص تشريعية تتناول قضايا متعددة ذات صلة بالأرض واستغلالها والحيوانات وحمايتها وغير ذلك من الأمور التي تحقق كل نفع للإنسان وتمنع عنه كل ضرر، وإذا جاز لنا أن نذكر أمثلة لذلك فإننا نذكر ما صاغه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة من مبادئ حول عدم شرعية ممارسة الحق المؤدي إلى ضرر، وخاصة فيما يتعلق بملاك الأراضي واستعمالاتهم لها المؤدية إلى ضرر، وكذلك ما وضعه أبو يوسف من قيود على حقوق الأفراد والسلطات في زراعة الأرض البكر حين تسفر عن ضرر بالغ، ومثل ذلك ما وضعه ابن قدامة من قيود على استخراج المياه الجوفية إذ ليس للإنسان الحق في أن يؤثر على بئر جاره تأثيراً سيئاً عن طريق خفض النطاق المائي أو تلويث الطبقة الصخرية المائية[28].

إن المتتبع لمصادر الموسوعة الفقهية الإسلامية على مختلف مدارسها سوف يجد إسهاماً كبيراً لفقهائنا ينظم كافة العلائق بين الإنسان ومحيطه البيئي بما يتناسب وبساطة البيئة التي عاشها هؤلاء الفقهاء، ولذلك فإن بيئة التدوين الفقهي التي لم تشهد معاناة بيئة اليوم من التلوث والفساد البيئي المتنوع الذي خلفته أنانية الإنسان قد شهدت اجتهاداً فقهياً يلبي حاجة تلك البيئة مما يجعلنا نؤكد إن الاجتهاد في مجال البيئة كان سمة بارزة من سمات الثقافة الإسلامية، وأن فقهاءنا

---

(27) رجال الدين يتعهدون بالحفاظ على البيئة/ بي بي سي أونلاين 13/ 1/ 1424.

(28) مجلة المسلم المعاصر/ مصدر سابق/ ص87 وما بعدها.

قد أولوا البيئة اهتمامهم مما انعكس في صورة أحكام تأخذ في اعتبارها حتى الافتراضي الذي يتوقع أن يمارسه الإنسان جراء أنانيته وسيطرة الحياة المادية عليه.

أما إذا نظرنا إلى عالم اليوم وما فيه من تعقيدات الحياة وأثر ذلك في الإضرار بالبيئة فإننا لا نجد ما يلبي حاجتنا من اجتهادات فقهية تحرم أو تحلل الكثير من الممارسات الإنسانية الضارة بالبيئة حتى تلك التي يعتقد أنها لصالح الإنسان ذاته، أي بمعنى أن الاجتهاد المعاصر لم يرق إلى مستوى تطور الحياة وتنوعها وتعقيداتها في كل المجالات والبيئة واحدة منها، ولذلك صارت الكثير من القضايا المعاصرة تمثل تحدياً لفقهائنا الذين لم يستطيعوا تقديم الحلول الناجحة لها لأسباب متعددة نذكر منها:

أ ـ الموقف من الاجتهاد ذاته بفتحه أو غلقه كما يعبر الكثيرون مما أثر سلباً على كثير من العلماء الذين وقفوا ينتظرون من يفتح لهم باب الاجتهاد الذي لا نعلم من يملك مفتاحه، وكان ذلك من أهم الأسباب التي عطلت حركة التفكير الفقهي وجعلته لا ينفك عن المسائل التي تناولها أئمة المدارس الفقهية مما عطل الكثير من القضايا التي ينتظر الشارع المسلم رأياً شرعياً فيها.

ب ـ عدم تجدد منهجية الاجتهاد عند أولئك الذين شعروا بأهمية الاجتهاد ولم يهتموا بمن يمارس الوصاية عليه ويقول بغلقه، فالمنهجية التي اتبعوها لا تخرج عن قياس المسائل المعاصرة على أقرب صورها المذكورة في كتب الفقه مما يعني غياب القاعدة المعروفة: (تغير الفتوى بتغير الظروف والأزمان) ومما يعني أن النوازل المعاصرة التي لا يتوافر لها مقاربات تقاس عليها ستظل مشكلات فقهية معاصرة تنبئ عن مشكلات اجتماعية وتنبئ أيضاً عن قصور فقهي لا نرتضيه لشريعتنا التي نفاخر بأنها تملك أعظم موسوعة فقهية شهدها التاريخ البشري. ولسنا نعدم أمثلة لهذه المسائل فمجتمع الأقليات المسلمة يعاني الكثير، والظواهر العلمية الجديدة تغرقنا في بحر من الجدليات التي تظهر بوضوح مدى الحاجة إلى

تحديد منهجية الاجتهاد المعاصر بما يلائم تحديات العالم المعاصر.

ت ـ الاجتهاد في مجال البيئة ـ وخاصة المعاصرة ـ يحتاج إلى ثقافة بيئية علمية تشمل علوماً تقنية متعددة وذلك حتى يستطيع المجتهد أن يدرك حقيقة الواقعات أو النوازل التي يريد أن يفتي فيها، ولا أعتقد أن كليات الشريعة في عالمنا الإسلامي قد أدرجت في مناهجها ما يؤهل المتخرج منها لأن يؤدي دوره في مجال الاجتهاد المعاصر، وحتى كتب أصول الفقه التي بينت شروط المجتهد لم تجعل من بينها (معرفة الواقع). وقد تنبه إلى ذلك عدد من فقهائنا القدامى والمعاصرين الذين أشاروا إلى خطورة جهل المجتهد بالواقع ومعرفة أحوال الناس، ومن هنا نقول إننا لا نتوقع لمجتهد معاصر أن يدرك أخطار التلوث الذي ينشأ في الهواء الخارجي نتيجة غازات تصدر من مصنع لمسلم يظن أنه يرتزق حلالاً من خلال هذا المصنع، ولا يمكن لمجتهد معاصر أن يدرك أخطاراً تترتب على أسمدة يضعها فلاح مسلم يظن أنه يصل بها إلى مستوى من الإنتاج يخدم به مجتمعه، وذلك لأن هذا المجتهد لم يدرس هذه القضايا وتقييمه لها لا يزيد على تقييم مثقف عادي.

ث ـ عدم وجود مؤسسات للاجتهاد الفقهي تغطي العجز الناتج في إعداد الكوادر الفقهية وذلك بما تتيحه من انضمام مختصين في مجالات العلوم المختلفة يوضحون حقائق القضايا المعروضة للاجتهاد وبصورة علمية دقيقة، وتتحقق من خلالهم ومن الفقهاء معهم شورى الاجتهاد الفقهي التي نحن في أمس الحاجة إليها في عالمنا المعاصر، فبهذه الصورة نعطي للاجتهاد قوته العلمية، ونتيح أمامه عمق التفكير، ونبعد عنه أخطار التشنج والرؤية العاطفية، ونحفظه من شرور الاستخدام الأيديولوجي المقيت.

ج ـ عدم تغلغل فكر المقاصد الشرعية في ثقافتنا المعاصرة مما أدى إلى ضيق الأفق والتمترس وراء الحرفية والذي سبب كثيراً من المشكلات الفقهية التي مارست ضغطها على المسلم المعاصر والتي كان من الممكن

الخروج منها بيسر وسهولة لو أننا عملنا على تجذير فلسفة المقاصد الشرعية في ثقافتنا المعاصرة.

نخلص من ذلك كله إلى أن الاجتهاد الفقهي المعاصر في مجال البيئة لا يتناسب مع حجم التحديات الكبرى التي تحتويها البيئة المعاصرة وأننا بحاجة إلى التأكيد على ضرورة هذا الاجتهاد وحاجة المجتمعات الملحة له، كما أننا بحاجة إلى التأكيد على أننا قادرون على هذا الاجتهاد بما نملكه من قاعدة نصية واسعة يحتويها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتراثنا الحضاري، والحاجة فقط إلى تطوير مناهجنا بما يمكننا من النظر في المسائل بعلمية وسعة أفق.

وإذا جاز لي أن أقدم توصيات في هذا البحث العلمي فإني أقدم ما يلي:

1 ـ قضايا البيئة المعاصر تمثل تحدياً للفكر الإنساني عامة لما تفرزه من مشكلات يومية تهدد الوجود البشري كله، والإسلام يملك الحلول الناجحة لجميع المشاكل البيئية المعاصرة بما يعرضه من مبادئ تقوّم مسيرة الإنسان وتحد من نزواته المادية المؤدية إلى هذه المشاكل.

2 ـ الفقه الإسلامي وضع الأسس الكفيلة برسم الطريق الصحيح للتعامل مع البيئة تحت قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) ولذلك فإن استلهام روح هذه الأسس كفيل بحل الكثير من المشكلات البيئية المعاصرة.

3 ـ الحاجة ماسة إلى تطوير مناهجنا التعليمية بما يؤدي إلى تزويدها بثقافة إسلامية توضح مقاصد الشريعة في التعامل مع قضايا البيئة المختلفة.

4 ـ ضرورة أن تعمل الجامعات الإسلامية على فتح أقسام أو إضافة مواد في كليات الشريعة تمكن المتخرج من النظر بعلمية إلى القضايا المعاصرة ومن بينها قضايا البيئة.

5 ـ الدعوة وبإلحاح إلى إنشاء مؤسسات الاجتهاد الشرعي والتي تضم علماء من تخصصات مختلفة تعرض عليهم القضايا المعاصرة لدراستها بمنهج يضع في اعتباره التمسك بالثوابت مع عدم إهمال الواقع وما يطاله من نوازل.